إعداد الأساتذة:
ليلى جغام
مشقوق هنية

عنوان المداخلة:

وصف التجربة الشعرية للشاعر : رضا ديدانيي

ممثل أدباء الهامش في الجزائر

لغة:

هامش وهوامش.. حاشية الكتاب أو جانب الشيء وعرضه.. وفلان يعيش على هامش الحياة، حيث توحي لنا الكلمة بدونية الشيء أو تواضعه!! في حين نستمد من هوامش الكتب ثقافة قد لا نجدها في الكتب نفسها.. إذاً ف(الهامش) كلمة ذات عطاء موجب وسالب في آن، وليس سالب فقط، فإن تكون على هامش الحياة يعني أنك بمعزل عن مآسيها، وهمومها، وعللها، وأوجاعها، وفقرها، و جوعها..[1] و تشعر أن فلان جعلك في الهامش أو على الهامش فتأسى وتحزن وتكتئب.. مع أن وضعك هذا يمنح ذهنك مساحة لمراجعة أسباب جعلك كذلك؟ وطلب معرفة أين يكمن الخلل، فيك أو فيه؟ [2] .

اصطلاحا:

أشار توفيق بكار في حديثه عن الهامشية أن الكلمة مشتقة من لغة الوراقة، وتتعلق بهيئة توزيع الكلام على الصفحة المخطوطة أو المطبوعة، فلها صدر ولها

هامش يحيط به، أما الصدر فللنص أي المتن، وأما الهامش فلتوابعه من التحشية والتعليق [3] .

وللكلمة مشتقات أخرى نحو : الهامشي والهامش والمهمش، خاصة عندما ترد الكلمة مصاحبة لكلمة أدب .

وقد ظهر لنا **أدب الهامش** بجانب ثقافة الهامش، وكان ظهوره جليا في مدن الداخل الجزائري المقموع مثقفيها .... عندما أقيم ملتقى ثقافي هو الأول من نوعه تحت تسمية **عرس الهامش** [4]

الفرق بين الأدب الهامشي وأدب الهامش والأدب المهمش :

الأدب الهامشي يفترض وجود الأدب المركزي، الذي هو أدب المؤسسة، يكتبه كتاب من صنع المؤسسة السياسية أو الدينية النافذة في ذلك العصر للترويج أو الدعاية لها أو لتبرير وجودها، فهو أدب تابع للمؤسسة، وفي مقابل هذا الأدب **الهامشي**، وهو الأدب الذي يقوم على الاحتجاج ضد وضعية الإنسان والعالم وضد آداء المؤسسة وأحقية وجودها واستمرار سلطانها، وهو نوعان أدب منبري خطابي لا خير فيه وأدب فيه من الرقي ما يجعله ينقد في غير إسفاف ولا مباشرتية [5] .

أما **أدب الهامش** فهو أدب يرصد حياة المنسيين والذين يعيشون في طرة الحياة وعلى حافتها، هم المدقعون فقرا من متسولين ولصوص صغار ومتشردين وبائعين متجولين وصغار الموظفين، فيرصد هذا الأدب حياتهم ومعاناتهم، وفي مقابل ذلك نتوقع وجود أدب آخر هو **أدب المركز**، وهو الأدب البلاطي، أدب ينشغل بحياة الترف التي يحياها الخاصة من الساسة والفنانين ورجال الدين أحيانا[6].

في حين أن **الأدب المهمش** هو أدب المغضوب عليهم من طرف المؤسسة، إما لأنهم يحاربونها علنا أو يقدمون بدائل للحياة التي تسوسها من خلال **أدب تقدمي** يتغنى بالحريات مثلا [7] .

وصف التجربة الشعرية لرضا ديداني رأس أدباء الهامش في الجزائر:

ظهور أدب الهامش في الجزائر :

طفح الكيل، على ما يبدو، إذ بعد سنوات من العزلة المفروضة على الكتاب الجزائريين الذين يعيشون خارج العاصمة، ها هو أحد كتاب الضواحي يصدر بياناً قاسياً، يذكّر فيه بأن الجميع سواء في المحنة، وأن المركز هامشي بدوره وليس متناً، كما يعتقد البعض [8].

في الجزائر قلمّا تجد كاتبا معروفا، تعود أصوله إلى مدينة الجزائر العاصمة صاحبة التاريخ الطويل وعدد السكان الكبير الذي يقارب الخمسة ملايين نسمة إلا في حالات استثنائية، ومع ذلك فكل المنابر الثقافية والإعلامية في هذا البلد وكل الجمعيات الفاعلة تقريبا موجودة في الجزائر العاصمة، ونتيجة لهذه المفارقة الغريبة، نشأ ما يمكن أن يسمى "أدب العاصمة" و"أدب الضواحي"، هذا الأخير الذي يكتبه أدباء يعيشون خارج العاصمة وصخبها وحتى أضوائها الإعلامية [9] .

أقيم في الفترة الأخيرة ملتقى أدبي بإحدى مدن الداخل الجزائري سمي "عرس الهامش"، كأول محاولة جادة من أجل إسماع صوت "الجزائر العميقة" كما تسمى كل المدن الجزائرية، ما عدا العاصمة التي تحولت إلى مركز كبير فيه كل وسائل الإعلام والدعاية الثقافية، بمقابل الهامش الذي لا يمتلك شيئا من تلك الأضواء وبقي كتّابه في ظل النسيان يكاد صوتهم لا يسمع حتى "ولو كتبوا الروائع الأدبية"، مثلما يؤكد بعض الملاحظين [10].

وقد ظهر مصطلح "أدب الهامش" في الجزائر منذ سنين وكان يعني "أدب المهمشين" المتمردين على المنظومة الرسمية مثلما هو معروف في آداب وفنون الشعوب الأخرى، وكانت أول محاولة للاحتفاء بذلك الزخم سلسلة "نصوص الهامش" الشعرية التي أصدرتها "رابطة كتّاب الاختلاف" نهاية تسعينات القرن

العشرين، وصدر عنها الكثير من النصوص الشعرية لشعراء كانوا مهمشين في المنظومة الشعرية الرسمية قبل ذلك [11].

لكن مفهوم الهامش تغيّر في نظر الكثير من الكتّاب، عندما حدثت تحولات في المشهد الأدبي، وانتزع هامشيو الجزائر العاصمة، مكانة لهم تحت الأضواء وتم الاعتراف بهم. وعندما وجدت فئة من كتّاب الضواحي الجزائرية نفسها بعيدة عن تلك الأضواء أصبحت تنسب نفسها إلى الهامش. ومن بين كتّاب الهامش المعروفين الشاعر رضا ديداني الذي ما زال لحد الآن يمتهن التعليم في إحدى المدن الصغيرة القريبة من مدينة عنابة بأقصى الشرق الجزائري [12].

رضا ديداني أديب الهامش :

رغم أن تجربته في الكتابة بدأت في ثمانينات القرن العشرين إلا أنه لم يتمكن من إصدار مجموعة شعرية إلا مع مطلع الألفية الجديدة، واختار لها عنوانا معبرا هو "هيبة الهامش" [13].

ويعتبر رضا ديداني كتابة الضواحي فعلا "مهمشة جغرافيا"، ويؤكد صراحة أن "كتّاب الضواحي أصدق من كتّاب المركز لعدة اعتبارات، منها أنهم يعايشون الواقع الحقيقي، ويحتكون بشكل مباشر مع الأشياء الطبيعية، وأن الواقع اليومي في الضواحي أكثر واقعية ولا زيف فيه بعكس كتابة المركز" [14].

وفي ذات الوقت يؤكد ديداني أنه استغنى عن العاصمة، واستطاع بسبب تواجده طويلا في الهامش الشعري وفي مدن الضواحي أن يرى "أصواتا أدبية مهمة جدا لم تستطع إسماع صوتها للمركز وللعالم لأن الأبواب مسدودة في وجهها ولم تجد أي منفذ للظهور" [15].

ولئن رضي الشاعر رضا ديداني بالبقاء بعيدا عن أضواء العاصمة، فإن شاعرا آخرا نشأ في الهامش الشعري هو الطيب لسلوس، المحسوب على ما يسمى بـــ "جيل التسعينيات الأدبي" وقد صدرت له مجموعته الشعرية الوحيدة

"هيروغليفيا" منذ حوالي أربع سنوات، كان من ضحايا لعبة هامش الضواحي والمركز، فرغم تميّز صوته الشعري الحداثي وعمقه الفلسفي إلا أنه بقي في الظل لا يعرفه إلا القليل من المهتمين بالشأن الشعري الجزائري، مما اضطره للهجرة إلى العاصمة في ظروف صعبة جدا. وهكذا استطاع هذا الشاعر طباعة ديوانه الأول "هيروغليفيا" الذي صدر عن منشورات اتحاد الكتّاب الجزائريين سنة 2003، وأن يكون له اسم في المشهد الشعري الجزائري المعاصر [16].

وقفة مع ديوان " هيبة الهامش " للشاعر رضا ديداني :

قصائد تعانق الحلم و الانكسار – كما وصفت – عرضها الأخضر رحموني، صدرت عن منشورات إتحاد الكتاب الجزائريين و بمساهمة الصندوق الوطني لترقية الفنون و الآداب و تطويره التابع لوزارة الاتصال و الثقافة، وصدرت مؤخرا عن مطبعة دار هومة المجموعة العشرية الأولى للشاعر الشاب رضا ديداني الموسومة بـــ" هيبة الهامش" في 94 صفحة من الحجم المتوسط ، و الديوان مقسم إلى مجموعتين شعريتين، الأولى حملت عنوان " قصائد العزلة" و تحتوي على 11 قصيدة و الثانية بعنوان " قصائد الهامش" و تضم 06 قصائد [17].

رفع الشاعر رضا ديداني باكورة أعماله الشعرية إلى روح الأصدقاء : عبد الله بوخالفة وعبد الله شكري وبختي بن عودة الذين اختطفتهم أيادي الغدر والخيانة وهم في عمر الزهور، وما تذكرهم بالإهداء إلا عربون وفاء ومحبة خاصة وأن الشاعر قد جمعته وإياهم علاقات حميمية في دروب الهم الثقافي وفي الرؤية الفكرية الحديثة، و لا نكشف سرا إذا ما أشرنا إلى أن آخر رسالة كتبها المرحوم الشاعر عبد الله بوخالفة قبل و فاته بيومين خلال شهر أكتوبر 1988 كانت موجهة إلى صديقه رضا ديداني [18].

يمكن القول بداية أن "هيبة الهامش" تندرج ضمن ما يسمى ب: **شعر الحالة**، وأن جميع نصوصها خاضعة لحالة ما ألمت بالشاعر فيقولها بكر (خام)

كما أحسها لا كما فهمها، مترجما إياها ألفاظا وعبارات ــ ولا أقول أفكار أو معاني ــ بل أصوات مكتفية بذاتها مشبعة بزخم وقع حالتها ومتموجة بتموجها، فإذا ما كانت الحالة حادة وقوية جاءت الألفاظ كذلك حادة وقوية من خلال صوتياتها (phonemes) في تناغم نفسي خالص، إذ نقرأ مثلا في نص (عزلة) ص12 : [19]

"طيش

لا تقلق من يأس بليغ مثل هذا اللون الأزرق

حتى لو كانت مغرمة بطهرها ،

لغة يفتنها سماء الوثن

هي بلبسها تحتلي ،

وأنت بأملاحها تتمعن ضدك" !

وإذا ما تأملنا في المقطع وجدناه يعبر عن حالة قلق وحيرة وما ينبثق عنهما من اضطراب وعنف ..وإذا ما حاولنا تفكيك المقطع السابق وقراءة السطر الأول منه الذي يقول :

لا تقلق من يأس بليغ مثل هذا اللون الأزرق.. وقرأناه سيميائيا وتأملنا في دلالاته وإشاراته لوجدنا أن الشاعر يسقط حالة نفسية (القلق واليأس) على معطى طبيعي، الألوان (اللون الأزرق)، ثم ينتقل مباشرة إلى حالة أخرى يتحدث فيها عن المؤنث بعد أن كان يخاطب المذكر فيقول: **(حتى لو كانت مغرمة بطهرها)**، وهو طرح ظاهريا لا يمت بصلة إلى السطر الأول ولكنه شعوريا مرتبط أشد الارتباط لكون الشاعر لا يقصد المعنى أو الفكرة بل ينساق وراء الحالة والإحساس الذي ألم به فيقولها كما أحسها وشعر بها.. ونلمس ذلك في السطر الذي يليه مباشرة في قوله:

لغة يفتنها سماء الوثن

هي بلبسها تحتلي ،

وأنت بأملاحها تتمعن ضدك !

قد يراه البعض شيء من العبث، والبعض الآخر يعتبره سخف .. ولكن السؤال المطروح عبثا وسخفا بالنظر إلى ماذا؟! وهنا يكمن سر شعر الحالة! هل نحن نقرأ الوعي أو اللاوعي؟ الظاهر أم الباطن؟ الفيزيقي أم الميتافيزيقي (الماوراء)؟ !

وإذا ما أخذنا بالمعايير المعمول بها وقرأنا نصوص رضا ديداني بالقواعد المتداولة والمتعارف عليها أكاديميا؛ من الجانب اللغوي والموسيقي والبناء التركيبي للمعاني والأفكار لرميناها جانبا. ولكن إذا ما أخذناها كمعطى وجودي (جسد النص) لاستمتعنا كثيرا بمناقشتها ومعرفة كنهها [20] .

ومع هذا فنصوص رضا ديداني لا تخلو كلها من التركيب المنطقي واستدراج المعنى، فهذا نص (الطين) ص21 دليل على ذلك، فيقول:

انحنيت، كانت الغرفة،

أقرب إلى ظهري

وصوتي يتدحرج كحجر السقف

وأنا أحاول أن أنام بأقراص النهار.

* * * * *

لا تعدم الفكرة

فنجان القهوة

كل صباح ينطفئ

لفكرة بين أصابعي تربك

كأسئلة الأطفال

أنا أنتظرها.

وهي تنتظر الإعدام ! [21]

ويمكن للقارئ الذكي تفكيك تركيبة هذه النصوص المكثفة لغويا، النابعة من يقظة ذهنية تلامس المغيب و الأنا التي أصبحت مكرسة تعبيريا للأنا القوة الفاقدة لهويتها بمختلف تجلياتها ، وفي أحيان كثيرة تخاطب بل تحاكم الأنا قبل محاكمة الآخر .

من لبس الصمت

تيقنت أن اللغة يائسة

وغايتي لا أعرف!

أنت هناك

ثوب أزرق يرتعش

وأنا أعاين الحجر الأملس [22]

ويتجلى الحضور الشعري المتميز لهذه النصوص في تقاطعها مع الراهن الاجتماعي الخاضع لسياسة الأقوى بالعودة إلى ديمومة حركة الثمانينيات الحالمة و التسعينيات المنتكسة من القرن الماضي

وهكذا جاءت مجموعة " هيبة الهامش" متفتحة على رؤية نصية مشهدية بتوظيفها بعض الدلالات اللفظية مثل (المرآة، النافذة، الطفل، الذباب ، الثقوب،.....) كرموز للتعبير عن قلق الوجود ، وإحباطات النفس المغيبة، وحرقة الكلمة البريئة ، فقصيدة " سؤال" كنموذج تحمل في مفاصلها حيرة الإنسان الجزائري إزاء سياسة مفلسة ثقافيا و اجتماعيا مما جعلته يتمرغ بين لغة الخشب ولغة العدمية حتى سقط في اليومي العبثي [23]

وفي نص (هيبة الهامش) المتضمن بالمجموعة يحاول رضا ديداني أن يمد جسور التلاقي ويفتح كوة للإفصاح عن عالم الهامش فيقول:

تمهلني ، أمهلك ،

من مساء الضوء الغابر في مهالك السوء ،

اختار الشك.

وأنا أتبرم بشفاه فاضت علي.

ترددت ، حين شاخت قدمي

عند عتبات الباب

أسمي الظل ، وكأني ألسعه ،

كم أختفي .. حتى لو أمهلك.

.....

.....

اندفع ، اندفع . . الآن.

حتى فمي أزرق عند أقدام هذا الهيكل.

ما بوسعه يئن حيلة

لينقر النافذة

وأنا بين أصابعه

أرتمي لأرمم جسدي

وأخيط ملذاته لأساعدك

أفترض أن أجيء بقلب هادئ

لكن أذني من نقر الباب ترتعش. [24]

يتبع الشاعر خطواته موغلا في الهامش، يوارب معناه، ويصرخ في صمت وبقلب مثلج هادئ يبحث في أبعاد المدفأة عن غنيمة الممر لدفء الغيمة بعيدا عن

قلق (حتى) وقصائد العزلة !

والمجموعة تضم 17 لغزا بداية من نص (عزلة، ملوك النمل، أنا، طين، أنت سؤال، محاكمة، الآن، نص الذباب، شفة النهاية، ملاذ المتن، هيبة الهامش، أبعاد المدفأة، حتى، دفء الغنيمة، قلق، غنيمة الممر)، وكما يتضح من خلال هذه العناوين المسائلة والحائرة فالشاعر دوما في عملية بحث وتجريب، هو لا يقول المتن وإنما يخاتل الهامش ويسير بجانبه كالظل يطارد فراشات المعنى ويهمس لأزهار الجانب بالسر الذي يبحث عنه ولا يفشيه [25].

فـــ"هيبة الهامش" إذن مغامرة في عالم المجهول، ديوان يحذوه القلق من كل جانب؛ لغة وبناء وصورة.. وتحوم من حوله علامات التعجب والاستفهام (!؟)، فهو مؤشر قوي نافذ إلى أغوار عالم باطني يحاول الشاعر رضا ديداني الإفصاح عنه بأدوات مغاير للسائد ومختلفة عن المتفق عليه.. قد تكون نظرة أو نظرية لعالم موازي (الهامش)، وقد تكون أشياء أخرى تعجز اللغة عن قولها [26]

وقد أورد الشاعر عز الدين ميهوبي ــ رئيس إتحاد الكتاب الجزائريين - في تقديم المجموعة أن في ديوان " هيبة الهامش" شيء من سيرة رضا ديداني التي تنبئ عن ميلاد جيل من الشعراء الذين يرفضون الموت على أرصفة الإبداع المتوحشة " [27].

خاتمة :

نخلص إلى أن هامشية الأدب تتعلق بمدى تسليط الأضواء عليه واكتسابه اهتمام السلطة الفاعلة أو المؤسسة المكلفة برعاية ذلك،حتى لو كان من روائع الكتابات كما قال بعض الملاحظين، ويتعلق الأمر عادة بكتاب الضواحي من غير العاصمة أو ما يسمى بالجزائر العميقة، مما يتخذ من مجريات الحياة اليومية في

هذه المناطق موضوعا لها، مما يعتبر خارجا عن اهتمام المؤسسة الوصية على ترقية الأدب ومتابعته .

وتتضمن قصائد ديوان **هيبة الهامش** للشاعر رضا ديداني إحساسا بالعزلة والتهميش مما كان يمارس ضد صاحبها وغيره ممن عاصرهم ونحو نحوه

هوامش الدراسة :

[1] - http://213.136.192.26/2009jaz/apr/29/ar8.htm عنوان المقالة : بلا تردد – تهميش الهامش ، هدى بنت فهد المعجل

[2] - نفسه

[3] - http : // www.diwanalarab.com/spip.php?article 9391 عنوان المقالة : الفلسفي في عشب الليل لإبراهيم الكوني – 12 حزيران – يونيو 2007 بقلم كمال الرياحي

[4] - http://213.136.192.26/2009jaz/apr/29/ar8.htm عنوان المقالة : بلا تردد – تهميش الهامش ، هدى بنت فهد المعجل

[5] - http : // www.diwanalarab.com/spip.php?article 9391 عنوان المقالة : الفلسفي في عشب الليل لإبراهيم الكوني – 12 حزيران – يونيو 2007 بقلم كمال الرياحي

[6] - نفسه

[7] - نفسه

[8] - http://www.aawsat.com/details.asp?section=19&article=413511&issueno=10354 عنوان المقالة : كل ما هو خارج العاصمة لا يستحق الضوء

[9] - نفسه

[10] - نفسه

[11] - http://213.136.192.26/2009jaz/apr/29/ar8.htm عنوان المقالة : بلا تردد – تهميش الهامش ، هدى بنت فهد المعجل

[12] - نفسه

[13] - http://www.aawsat.com/details.asp?section=19&article=413511&issueno=10354 عنوان المقالة : كل ما هو خارج العاصمة لا يستحق الضوء

[14] - نفسه

[15] - نفسه

[16] - نفسه

[17] - http://montada.echoroukonline.com/showthread.php?t=11743

[18] - نفسه

[19] - http://www.ofouq.com/today/modules.php?name=News&file=article&sid=3108

[20] - نفسه

[21] - نفسه

[22] - http://montada.echoroukonline.com/showthread.php?t=11743

[23] - نفسه

[24] - http://www.ofouq.com/today/modules.php?name=News&file=article&sid=3108

[25] – نفسه

[26] - نفسه

[27] - http://montada.echoroukonline.com/showthread.php?t=11743